وأثنى همام على صراحة سارة وقلة دعواها، واطمأن إلى سياق الفلاسفة والشعراء فقال: الآن آمنتُ مرةً أخرى أن صديقي «هيني» خبير بالنساء في جده ومزاحه …

قالت: ومَن صديقك هذا هيني؟

قال: لا تتهيبي، فليس هو بفيلسوف مغلق، ولا هو بالكاتب الذي يحوجك إلى ترجمان أو مفسر، إن حلا لكِ أن تقرأيه وحدكِ فهو شاعر سلس سائغ، وما أحسبُ له نظيرًا في الدعابة وخفة الروح.

قالت: أصحيح؟ وماذا قال عنَّا معشر النساء هذا الشاعر الظريف؟

قال: إنه ضجر من سيدةٍ دعيَّةٍ لها عينٌ واحدةٌ تتطفل على الأدب، فكتب عنها يقول: كل امرأةٍ تكتب فإنما تتجه عينيها إلى القرطاس وبالعين الثانية إلى رجلٍ … ما عدا فلانة طبعًا … فإن لها عينًا واحدةً كما يعلم القراء!

فراقتها غمزة الشاعر للمرأة الدعية، وقالت: أما من جهتي أنا فإني لأقر وأقسم بين يديك وبين يدي الله أن هيني لظريف وإنه لصادق، فما تقرأ المرأة إلا عن رجلٍ أو بسبب رجلٍ، وكل ما عدا ذلك كذب وادعاء.

وتشعَّب الحديث، وتفتحت مغاليق الأسرار من الجانبين، وفي غير مناسبةٍ ظاهرةٍ سألته وفي عينيها خبث كخبث الأطفال المناوئين: كم عمرك يا همام؟

قال همام: دعي هذه المحرجات يا بنية، فإن أبيتِ إلا الإلحاح فسأخبركِ على شريطةٍ واحدةٍ، وهي أن تخبريني أنتِ — بداءة — لماذا تسألين؟

قالت: ولِمَ؟ أيتغير عمرك بتغير أسباب السؤال؟ على أنني لا أنوي أن أدعك تطيل التخمين، وأريد أن أفرض لكَ اثنتين وثلاثين سنة إذا كنا متفقين في نسبة السن كما اتفقنا في غيرها من المقارنات … فإنني أنا في الثالثة والعشرين، وينبغي أن يكون عمر المرأة نصف عمر الرجل مضافًا إليه سبع سنوات.

قال: بل تسمحين أن يكون عمركِ خمسًا وعشرين ليتفق الحساب من الطرفين، وأقسم لكِ أنني ما أسقطتُ يومًا واحدًا، وأنَّكِ أسقطتِ السنتين الناقصتين!

من الواجب أن نعرف لأيام النعيم وداعًا غير وداع الأسى والأنين الذي اصطلح عليه شعراء الاصطلاح في بعض العصور العربية.

فمن الخيانة للسرور عند هؤلاء الناس أن تلوح له ساعة وداعه بمنديل غير مبلول، وأن تفرغ منه شبعان راضيًا عن الشبع شاكرًا للزاد، خاليًا بذكرياته للتملي به والتأمل فيه.